دود على عود

للدكتور محمد عوض محمد

ها أنت ذا ، أيها الصديق ، قد استويت ومن معك على ذات ألواح ودُسر . وقد أذنت ساعة الرحيل ، ولم يبق بد من الفراق ، فلم نجد مناصاً من النزول الى البر ، تاركيك على ظهرها ، غير آسف لفراقنا ، ولا مستشعر لوعة على تركنا . . وانطلق الصفير والزئير يشقان الفضاء ، فاذا السلالم تدرفعت ، والاهلاب قد جذبت من قاع البحر . وإذا سفينتك آخذة فى الابتعاد على مهل كأنها لاتريد أن تؤلمنا ببعدكم مرة واحدة ؛ وإذا مناديلنا تخرج من جيوبنا بيضاء ناصعة ، وقد حملتها الايدي أعلاماً تهزها هزاً ؛ و بين الجوانح قلوب تخفق خفقان الأعلام ، ولكن أعينكم لاتراها .

وها أنتم أولاء وقوف بأفريز السفينة ، تخفق مناديلكم بايديكم خفقانا فاتراً ، لم ينبعث من قلب حزين ، ولا نفس آسفة ؛ وعلى ثغوركم ابتسامة تعبث في تأويلها وتفسيرها ؛ وأحسبها ابتسامة الرثاء والاشفاق : إنكم ترثون لنا ، معشر المقيمين ، وتنظرون الينا كأننا من نوع آخر غريب عنكم ، نوع يعيش عيشة الاشجار : تنشأ حيث تغرس ، ثم تنمو عليها الغصون والاوراق ، والزهر والثمر ؛ وهى باقية فى مكانها لاتبرح : وكلما تقادم بها العهد ازدادت تشبثاً بمنبتها ، وتعلقا بمغرسها ، لاتعرف ما ركوب البحار ، ولا لذة التنقل والاسفار ...

أجل كنتم تنظرون الينا نظرة اشفاق ، وكأنكم بعض الآلهة تلقي نظرة من السماء على ما دونها من الكائنات . . . وفى تلك الساعة رأيت دموعا كثيرة تنهمل ، ولكنها كانت تتساقط من عيون المودعين ، لا الراحلين . . فياويل الشجى من الخلى ! وياويل المجهود من المجدود !

* * *

وعجبت لك أيها الصديق ، كيف ترحل عنا باسم الثغر ، قرير العين مثلج الصدر . وأنت تعلم أنك راحل عنا أشهرا طوالا ، لاترانا فيها ولا نراك ، أليس للود القديم حرمة ، ولا للحب لمؤلف رعاية ؟ وهذا الوطن العزيز الذي أنبتك ثراه وغذاك هواؤه ، وأظلك دوحه ، وأنضجتك شمسه ، مالك لاتحس لفراقه جزعا ولا أسفا ؟ بل كأنك بهذا الفراق جد مغتبط ، ولهذا الرحيل مشتاق متلهف ! لاتحاول الانكار ! ان سرورك بهذا البعاد أكبر من أن يخفيه التكلف ، وما أنت ممن يحسنون تصنع الأسف ، بل إن بك شوقا شديداً باديا لمغادرة هذه الديار ، وكأنك لا تحيا بيننا تلك الشهور من كل عام ، إلا لكى تقضى هذه الأشهر بعيداً عنا

فياعجبا ! أى شيء هذا السم الزعاف الذى يملأ هواء بلادنا ، ويحملنا على أن نجد في البعد عنها ، وينفر الابن البار من أمه البرة ؟ أهو هواؤها الحار ، أم مجتمعها الفاتر ، أم مايحيق بها من ظلم وجحود ، ومن حرج وضيق ؟

لقد أخذت سفينتك تبتعد ، ولم تلبث أن اختفت عن الابصار وأضحت كأمل البائس لاتزداد على المدى إلا بعداً . وكأني بك واقفاً على ظهرها ، تتنفس نفسا عميقا ، لكى تخرج من رئتيك ماقد ثوى فيهما من هواء ؛ كأنك لا تريد أن تحتفظ حتى بهذا القدر القليل من الذكرى . . . بل تريد أن تأخذ عدتك لحياة جديدة ، وأيام سعيدة . فما أخلقك ألا تبقى للشقاء الغابر فى نفسك أثراً !

* * *

لكن أمامك فى السفينة أياماً لا أرانى غابطك عليها ، بين أناس قد اتخذوا الدعة شعاراً ، يصبحون كسالى ، ويمسون كسالى ، لايعرفون جداً ولا دأبا ، أقصى همهم أكلة لذيذة يصيبونها ! أو رقدة طويلة يستطيبونها ، وما عرفت الناس أدنى إلى الأنعام في مكان منهم على ظهر سفينة . . . فصاري جهد كل منكم أن يقتل الوقت ، وأن يتخذ لذلك سبلا شتى : فمنكم العاكف على الشراب ، لايشفى غليله الاسراف فيه . ومنكم المكب على الورق يتسلى باتلاف القليل من دراهمه أو الكثير . وبعضكم يلتمس اللهو فى ألعاب تافهة ، أو فى تقليب صفحات كتاب هزيل . إذ لا يستطيع أن يحشم نفسه مشقة أو جهداً .

ولقد تقدم العالم فى طريق المادة ، وجاء الاختراع بسفن ذات قوة وجسامة ، ولكن الركب مابرحوا اليوم كما كانوا فى قديم الزمن : دود على عود !

* * *

وأحسبك تتوهم أن سيتاح لك وانت بالسفينة ان تلتقى باعظم الرجال ، واجل النساء ، ولست ادري علي أى عمد قام فى نفسك مثل هذا الرجاء ؟ وهو لعمرك جدير بما يصيبه من

الخيبة المرة بعد المرة . انك تظن أن العظمة والجمال فى العالم من الكثرة بحيث يجوز أن يكون لكل سفينة تشق البحار نصيب منهما ، وخيل اليك أن السفينة خير دار تلقاهما فيها ، حيث لامفر لهما منك . وأن المجال الضيق كفيل بان يجعل الناس بعضم مقبلا على بعض ، والوقت طويل مديد ، لابد للناس أن يتعاونوا على قطعه بالحديث والسمر : فالفرصة اذن مؤاتية — فيما كنت تزعم — لأن تنعم نفسك بحديث العظمة ومرأى الجمال.

وما اشد ألمك حين ترى نفسك بين اناس ككل الناس ، او انفه من كل الناس . وان المجال الضيق قد حال بينك وبين الهرب منهم . والوقت الطويل الفسيح قد حباك الفرصة اللازمة لأن تعجب كيف استطاع بنو الانسان ان يشتملوا على كل هذه التفاهة والبلاهة .

لكن، صدقنى ان الذنب ذنبك انت اذ تركت نفسك يحلق بها الامل الكاذب . فليست ام الدنيا ولودا للعظمة والجمال بالدرجة التى صورها لك الوهم . وما جل بنها لو فتشت الا الطغام . وليس ببدع ان خلت سفينتك مما كنت تتمناه ، ثم نظرت حولك فلم تجد على ظهرها سوى دود على عود

* * *

ولقد تشرق عليكم الشمس صبحا، وملؤها الروعة والبهاء ،فتضرج وجنات المشرق بالنجيع ، ثم تسكب على صفحة الماء نضاراً وسحراً ، وأنتم فى أسرتكم الضيقة القلقة راقدون ، يحاول كل منكم النعاس وسط دمدمة الآلات ، وصرير الأبواب والجدران ؛ فلا تصيبون من النوم سوي شيء غريب ، ليس بالنوم الهادىء ، ولا باليقظة أو السهاد ، بل هو أشبه بغفلة المخدّرين ، تتخللها إفاقات قصيرة المدى . . . وأخيراً تنهضون من رقادكم المضطرب ، ويقبل بعضكم علي بعض تتثاءبون ، وتتحدثون أتفه الحديث .

وعند المساء تميل الشمس إلى الغروب ، وقد أحاطت بها السحب ، طبقات بعضها فوق بعض ، وهي تنحدر وسطها فى شيء من الحيرة ، كأنما تلتمس بينها طريقها إلي المغرب . تارة تحتجب وراء سحابة قاتمة حمراء ، وطوراً تستتر وراء أخرى استتاراً جزئياً لايكاد يخفيها ، كأنها الحسناء فى الغلالة ، وتارة تنحسر السحب عنها تماماً ، فتبدو للعين كاملة ، لكنها ضعيفة لاتبهر البصر ، وكأن سير النهار قد أنهك قواها وأدال منها . فبات من السهل عليك أن تقف أمامها ، محدقا فى محياها آمنا ، وهى كلما ازدادت ميلا إلى المغيب ازدادت ضعفاً وسقما . . . لكنها استطاعت أن تملأ السماء بشعاع أحمر قانيء ، ونشرته أيضاً على صفحة الماء ؛ وقد اختلطت هذه الألوان كلها بعضها ببعض ، فكان منها صور تعجز الوصف . وأنت تذكر أيها الصديق ، أننا قد اتفقنا — وقلما نتفق — علي أن هذا المنظر : الشمس الغاربة وسط السحاب المنشور ، فوق صفحات اليم ، هو أبدع شيء فى الطبيعة كلها !

وما اخالك إلا آلما أشد الألم ، حين تنظر إلى من معك من أهل السفينة ، تحاول أن تتحدث اليهم بما يبعثه هذا المنظر فى نفسك من إحساس وإجلال . . وفى تلك اللحظة يُؤذن مُؤذن العشاء ، فاذا هم يغادرونك فى شعرك وسحرك ، ويتسللون الى حجرة الطعام ، راغبين عن لذة لايعقلونها إلى لذة يفهمونها ويستمرئونها . . . وإن الصخور الصماء لتحس من معاني ذلك الغروب البديع أكثر مما تحسه أفئدة أصحابك هؤلاء وماهم ، لعمرك ، سوى: دود على عود .

* * *

ولقد يكون البحر لكم أول الأمر صديقاً ، وبكم رفيقا . ولكنه بعد ذلك قد ضاق بكم ذرعا ، فأراد أن يريكم أنه مثلكم يابنى آدم ، ليس ذا وجه واحد . بل إن له أوجها كثيرة ، وقد أراكم من قبل صفحة فيروزية زرقاء ، ووجها هادئا ، أملس ناعما . كأنه سهل فسيح من مرمر أزرق . وكانت جاريتكم تجري عليه فى اعتدال واتزان ، لاتهتز ولا تميل وكلكم فرح بذلك مسرور . تحسبون أن الوقت قد طاب ، وأنكم بنجوة من العذاب . ثم رأى البحر أن يريكم وجها من أوجهه الأخرى . فعبس وتجهم ، وثار ومار ، وتطاير من وجهه الشرار . وانقلب صفاؤه إلى كدر ، وهدوؤه إلى انفعال ، وحلمه إلى جهل ، ورزانته إلى رعونة ، وعلا موجه من كل جانب ، ووثب رذاذه على باخرتكم ، ودخل إلى نوافذ حجراتكم ، وجعلت السفينة تتمايل من اليمين إلى اليسار ، ثم من اليسار إلى اليمين ، ومن الخلف إلى الأمام ، ثم من الأمام إلى الخلف ، سكرى من غير سكر ، صرعى من غير صرع .

ولم تك إلا لحظة حتى انقلب اطمئنانكم إلى اضطراب ، وامتلأت نفوسكم جزعا وقلوبكم هلعا . وانصرفتم عن الطعام والشراب ، وعن اللعب والحديث ، واستحالت رؤوسكم إلى قطعة من صداع وأوجاع ، وضعفت أرجلكم عن حمل أجسامكم ، فارتميتم على سرركم ، وأسلمتم أمركم إلى بارئكم .

فيا عجبا ! لقد أمعن الانسان فى الابداع والاختراع ، واستحدث كل هذه السفن الهائلة ذات السرعة والفخامة . . . ثم لايزال ركبها اليوم كما كانوا فى عهد عمرو وعمر : دود على عود

* * *

تلك أيامكم على ظهرها أيها الصديق . وإنى لأرجو لك بعدها سفراً هيناورحلة ميمونة،وما أجدرك ألا تجعلها كلهاعبثا ولعبا ؟